بسم الله الرّحمن الرّحيم

الحمدُ لله ربّ العالمين، القديم بلا ابتداء، والمستمرّ بلا انتهاء، الجاعل الموتَ موعظةً للأحياء، والصّلاة والسّلام على صفوة الأنبياء، محمّد النّبيّ العربيّ، وآله الأولياء، وصحابته الأنقياء، أمّا بعدُ:

فأنّى وجّهت وجهي ألفيتُ الشّرف يأتيني من لدن معلّمي، شرّفني حيًّا بأن قَبِلَ الإشرافَ عليّ وأدنى مجلسي منه، وشرّفني ميّتًا بأن أقفَ اليومَ متحدّثًا باسم طلّابه عنه، طابَ حيًّا وميّتًا.

هذا موقفٌ أقفه اليومَ وأنا مكتو بنارِ الحنين والذّكريات، فكيفَ يُرثى مَن لا يَزالُ حيًّا في القلوبِ؛ إنّ بعضي يرثي اليومَ بعضي...

بموت معلّمي د شفيق البيطار شعرتُ بأنّي فقدتُ بعضًا منّي، وأنّ ركنًا من أركانِ تركيبي الثّقافي والعلميّ قد انهدّ... فمن يكون لنا القدوةَ اليومَ؟

إنّ بكاءَنا وحزننا عليه راجعٌ في أصل تركيبه إلى ما اختصّه الله به من التّكوين العلميّ والتّركيب النّفسيّ والخلقيّ، فقد كانَ ـرحمه اللهـ نسيجَ وحده وفريد عصره وزمانه علمًا وخُلُقًا؛ ففي الوقتِ الّذي كادت فيه المفاهيم ـمفاهيم الأستاذ القدوةـ تنعدمُ أو تتشوّه خِلقتُها، ظهرَ أمامنا هذا الجبل الأشم، فآوانا إليه راشدين، معتصمين به من هول السّفر ووحشة الطّريق، فوجدناه المعلّم القدوة الّذي نهتدي بصُواه في طريق العلم والبحث.

إنّ أخطرَ ما قد يواجه الشّباب اليومَ فقدُ القدوةِ وانهدامُ المِثال في نفوسهم، إذ لا يمكنُ أحدًا أن يتقدّم في أيّ مجالٍ من المجالاتِ ما لم يؤسّس بنيانَه على قاعدةٍ صلبة متينة وضعها سابقوه.

لن أَرْحلَ ناقتي ماضيًا في رياضِ الحنين والذّكريات، فهذا ضربٌ من الحديث يطولُ حتى لا تجدَ له نهاية، وسأتحدّثُ في عجالةٍ عن جانبٍ مهمّ عرفناه عنده، وهو (الإشراف)، وما غايتُه منه؟

اشترطَ ـرحمه اللهـ لقَبول الإشراف على بعض طلبةِ الدّراسات العليا، ولا سيّما في العقد المنصرم، أن يكون الطّالبُ مُعيدًا لإحدى الجامعات السّوريّة، لإيمانه بأنّ الطالب المعيد الّذي سيصبحُ عمّا قليل مدرّسًا للطّلبةِ يجبُ أن يُنشّأ تنشئةً خاصّة، تجعله مؤهّلًا من حيثُ التّحصيل العلميُّ، وممارسة هذه المهنة الشّريفة؛ أي: إكسابُه أخلاقَ المدرّس الحقّ، وتهذيبُ نفسِه وسلوكه تهذيبًا يناسبُ أهمّيّة الحياة العمليّة.

فكانَ ـرحمه اللهـ في إشرافه ينظر بعينٍ إلى البناء العلميّ والمعرفي وإنجاز البحث، وبعينه الأُخرى يرعى السّلوكَ والخلُق، فيقوّمه كما يقوّم البحث.

وبقي ـرحمه اللهـ وفيًّا لهذا الشّرط إلى قبيل وفاته بقليلٍ، حينَ قَبِل احترامًا لرغبة القسم، وصونًا لكرامة الطّالبة الّتي راجعته غير مرّة، قَبلَ أن يُشرف على طالبٍ غيرِ معيدٍ، ولكن أبى الله إلّا يظلّ وفيًّا ـوالوفاء سَمتُه وديدنُهـ لشرطه، فاختارَه إلى جوارِه قبلَ أن يتمَّ البحثُ، وكانَ لا يزالُ في البدايات، ولعلّ الأخت الكريمة تتابعُ ما قد انعقد بينهما من عهد العلم والتّحصيل.

الأمرُ الآخرُ المهمُّ في الإشراف عند د شفيق رحمه الله، هو غايتُه من الإشراف المشروط بالمعيدين، فقد كانَ حريصًا على تفقِيهنا البحث العلميّ وأسسَه، فأرادنا أن نكونَ أصحاب منهجٍ واضح في قراءة الأدب والتّراث، فلم يكن همّه أن ينجزَ أحدنا أطروحته فيقدّمه للمناقشة، بقدر ما كان همّه أن نعي منهجَه؛ لأنّه يؤمن ـوكثيرًا ما أخبرنا بحقيقة إيمانهـ بأنّ مرحلة الدّراسات هي محطة انطلاق، يُؤسّس فيها الباحث، ثم بعد ذلك ينطلق في ميادين العلم والمعرفة مستندًا إلى منهجٍ واضح مبنيّ على الأسس العلميّة، فكانَ يعوّل في إشرافه على تشرّب المنهج لا على الموضوع مادّة الدّراسة، وهذه حكمة عظيمة، قد لا تجدها إلّا عند من أنار الله بصيرته، فأدرك أنّ أثره الحقيقيّ يكمنُ في إعداد جيل من الشّباب قادرٍ على إكمالِ المسير، وإلّا فإنّ العلومَ والمعارف والرّؤى تموتُ بموت أصحابها.

ومن أثر ذلك في إشرافه علينا أنّه كان يتابعنا في بدايات البحث، ومتى بدا له أنّنا فهمنا المنهج وتحقّق له ذلك فيما نقدّمه من عملٍ ترَكَنا نمضي في بحوثِنا، على فرطِ حرّيّة في التّعبير عن ذواتنا وشخصيّاتنا وآرائنا، فلم يصادر لنا رأيًا، بل كان يفرضُ علينا أن نقولَهُ مُؤَسّسًا على الحجج المنطقيّة العلميّة، وإن خالَفْنا رأيه وتوجّهه أحيانًا.

كان يعلّمنا أنّ العلمَ هو الغايةُ العليا، فلا مداهنة فيه، وأنّ القضيّة العلميّة قضيّة مُقدّسة مفصولة عن مواقفنا الشّخصيّة، باختصار علّمنا كيفَ نتجرّد حينَ نريد مناقشة موضوعٍ ما، فما رأيتُ رجلًا أقدرَ منه على فصل علاقاته الشّخصيّة وارتباطاته الاجتماعيّة عن المسائل العلميّة، على مهابةٍ ووقارٍ عظيمين أيّده اللهُ بهما.

إذًا، أن يورّث طلّابه المنهج القويم أكبرُ همّه ـرحمه اللهـ ومَن كان على صلةٍ به يعرفُ أنّه صاحبُ رؤيا وفكر ونظر بعيد، ومن ذلك أنّه وضع منهجًا للتّعليم في قصيدة نظمها وألقاها في هذا المجمع المبارك يومَ تسميتِه عضوًا فيه، ومنه انتدابه مَنِ ارتضى خلقه وعلمه إلى مركز (سبيستون) لبرامج الأطفال بعد أن أرشده إلى منهج العمل، ومنه أنّه وقف حتى وفاته مدافعًا عن العلم وقدسيّته، وعن صورة المعلّم الّتي يجبُ ألّا تُزعزع بعَرَضٍ زائلٍ من الدّنيا.

«إذا مات الإنسانُ انقطعَ عملُه إلّا من ثلاثٍ: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له» فما ظنّك بمَنْ جمعَها كلّها؟ أمّا العلمُ فظاهرٌ لا شكّ فيه، وأمّا الولد الصّالح فبنوه وطلّابُه إن شاء الله، وأمّا الصّدقةُ فوالله ما رأيتُ رجلًا أزهدَ منه، فكان يُنفق إنفاق مَن لا يخشى الفقر حتى آخر قرشٍ في جيبِه، ومنها تقديمهُ لي كثيرًا ولغيري من طلّابه وزملائه إلى أعمالٍ، لو عُرِضت على غيرِه لضنّ بها، وآثر نفسَه، وهي لا تزال مستمرّةً بعد وفاتِه، لله درّه! يجودُ ميّتًا كما جاد حيًّا!

وفي الختامِ أجعلُ هذه الكلمة في عنقي وعنق طلابه الّذين درّسهم وأشرف عليهم، وأدعوهم لأن يصدقوا وعدهم لأستاذهم ويكملوا المسير، كما أراد لهم أن يكونوا.

وأشكرُ أساتذتي الأفاضل الّذين شرّفوني بتقديمي بينهم للحديثِ عن الرّجل العلَم د محمد شفيق البيطار؛ أطالَ الله بقاءهم، مع وافر الصّحّة وتمام العافية.

الدّكتور أحمد العودة